أكاديمية الإمام الذهبي

للعلوم الشرعية

شرح
متن الآجرومية
للإمام أبي عبد الله محمد بن داود الصنهاجي
المعروف بـ ابن آجروم
٧٢٣هـ

المحاضرة الأولى

بسم الله الرحمن الرحيم

إن الحمد لله نحمده، ونستعين به ونستهديه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيرا، أما بعد:

فهذه هي المحاضرة الأولى من محاضرات شرح كتاب متن الآجرومية، لطالبات أكاديمية الإمام الذهبي رحمه الله للعلوم الشرعية، في الفصل الدراسي الأول من السنة الدراسية الثانية.

وهذه المحاضرة ستكون في مبحثين هما:

أهمية علوم العربية عموما، وعلم النحو خصوصا.

المبادئ العشرة لعلم النحو.

فأقول وبالله التوفيق ومنه العون والتسديد:

أولا: أهمية اللغة العربية

إنَّ اللغة العربيَّة هي اللغة التي اختارها الله لهذا الدِّين، ولا يَمْتَرِي أحدٌ في أنَّ اللُّغة العربيَّة وعلومَها تُنَزَّلُ من علومِ الإسلامِ ومعارفِه مَنْزِلة اللسان من جَوارح الإنسان، ولا نَبعُدُ كثيرًا إذا قُلنَا: بل منزلةَ القلب منَ الجَسَد؛ لأنَّها لسان الإسلام الأَسْمى، بها أُنْزِلَ القرآن العظيم، فقال جَلَّ وعَلاَ {إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ}

قال ابن كثير رحمه الله في "تفسيره" ٢/ ٤٦٧: لغة العَرَب هي أفصح اللُّغات وأبينها وأوسعها، وأكثرها تأدية للمعاني التي تقوم بالنفوس، فلهذا أُنْزِل أشرف الكُتُب بأشرف اللُّغات على أشرف الرسل... إلى آخر كلامه – رَحِمَه الله تعالى.

وكان السلف الصالح رحمهم الله يعلمون أن عز الأمة ورفعتها بعد التمسك بالوحي هو في عز لغتها ورفعتها، ولذلك ورد عنهم في آثار كثير الأمر والحث على تعلم اللغة العربية، وذم اللحن أو الكلام بغير العربية ومن ذلك:

قول عمر – رضيَ الله عنه، حينما كَتَب إلى أبي موسى الأشعري – رضي الله عنهما –: أمَّا بعدُ، فتَفَقَّهوا في السُّنَّة، وتعلَّموا العربيَّة، وأعرِبوا القرآن؛ فإنَّه عَربي.

وعن عمر أيضًا أنَّه قال: تعلَّموا العربيَّة؛ فإنَّها من دينكم، وتعلَّموا الفَرَائضَ؛ فإنَّها مِن دينكم.

وعن عمرَ بن الخَطَّاب – رضيَ الله عنه – قال: تعلَّموا العربيَّة؛ فإنَّها تزيد في المروءة، وتثبت العقل.

قال شيخ الإسلام ابن تيميَّة رحمه الله "وهذا الذي أمر به عمر – رضيَ الله عنه – من فقه العربيَّة، وفقه الشَّريعة، يجمع ما يُحْتَاج إليه؛ لأنَّ الدِّين فيه أقوال وأعمال، فَفِقه العربيَّة هو الطريق إلى فقه أقواله، وفِقه السُّنَّة هو فقه أعماله. ا.هـ

ورَوَى أيضًا، عن أُبَي بن كعب أنه قال: تعلَّموا العربيَّة، كما تعلمون حفظ القُرآن.

ورَوَى أيضًا، عن أبي جعفر أنَّه قال: مِن فِقه الرجل عرفانه اللَّحن.

ولاَ شَكَّ أنَّ دِعامة العُلُوم العربيَّة وقانونها الأَعلى، الذي منه تستمد العون، وتستَلْهِم القصد، وترجع إليه في جميع مسائلها، وفروع تشريها، هو علم النَّحو.

فعلم النَّحو من أسْمَى العلوم قدرًا، وأنفعها أَثَرًا، به يَتَثَقَّف أَوَد اللسان، ويَسْلَس عنان البيان، وقيمة المرء في طيِّ لسانه، لا طيلسانه، ولا يمكن أن يستغنيَ عن علم النَّحو إلاَّ الأخرسُ الذي لا يفصح بحرف واحدٍ، وقد وَرَد عن سَلَفنا الصَّالح – رحمهم الله تعالى – آثار كثيرة تَحُثُّ على تعلُّم علم النَّحو

وكل العلوم النَّقليَّة – على عظيم شأنِها – لا سبيلَ إلى استخلاص حقائقها، والنَّفاذ إلى أسرارها بغير هذا العلم، فهل ندركُ كلام الله تعالى، ونَفهم دقائقَ التَّفسير، وأحاديث الرَّسول – عليه السَّلام، وأصول العقائد، وأدلَّة الحكام، وما يتبع ذلكَ من مسائل فقهيَّة، وبحوث شرعيَّة مختلفة، قد ترقى بصاحبها إلى مراتب الأئمَّة، وتسمو به إلى منازل المجتهدينَ إلاَّ بإلهام النَّحو وإرشاده؟! حتى إن الشافعي رحمه الله كان يقول: علماء العربية جن الإنس يبصرون ما لا يبصر غيرهم، وقال الشعبي: النَّحو في العلم كالملح في الطَّعام، لا يُستَغنى عنه.

ولذلكَ أجْمَعَ الأئمَّة منَ السَّلَف والخَلَف قاطبة على أنَّ النَّحو شرط في رتبة الاجتهاد، وأن المجتهد لو جَمَع كُلَّ العلوم لم يبلغ رتبة الاجتهاد حتى يعلم النَّحو، فيعرف به المعاني التي لا سبيل لمعرفتها بغيره، فرُتبة الاجتهاد مُتَوَقِّفة عليه، لا تتم إلاَّ به، قال الشافعي رحمه الله: مَن تَبَحَّرَ في النحو اهتدَى إلى كل العلوم.

أهمية النحو في قراءة القرآن وتفسيره:

قال سالم بن قتيبة: كنتُ عند ابن هُبَيرة الأكبر، فجَرَى الحديث، حتى ذكر العربيَّة، فقال: والله ما استوى رجلان، دينُهما واحد، وحسبهما واحد، ومروءتهما واحدة، أحدهما يلحن، والآخر لا يلحن، إنَّ أفضلهما في الدنيا والآخرة الذي لا يلحن.

قلت: أصلحَ الله الأمير، هذا أفضل في الدُّنيا لفضل فصاحته وعَرَبيته، أرأيتَ الآخرة، ما باله فُضِّل فيها؟

قال: إنَّه يقرأ كتاب الله على ما أنزل الله، وإنَّ الذي يلحن يحمله لَحنه على أن يُدْخِلَ في كتاب الله ما ليس فيه، ويُخْرِج منه ما هو فيه، قال: قلتُ: صَدَق الأمير، وبَرَّ.

وقال الزهري رحمه الله: إنما أخطأ الناس في كثير من تأويل القرآن: لجهلهم بلغة العرب.

وقال مجاهد: لا يحل لأحد يؤمن بالله واليوم الآخر أن يتكلم في كتاب الله، إذا لم يكن عالما بلغات العرب.

وقال مالك: لا أوتى برجل غير عالم بلغة العرب يفسر كتاب الله تعالى إلا جعلته نكالًا.

وقال بعض السلف: من أوتي اللسان واللغة فقد أوتي مفتاحًا من مفاتيح القرآن، يفهم به معاني القرآن.

وقال آخر: لو سقط النحو لسقط فهم القرآن.

وقال الزركشي رحمه الله: واعلم أنه ليس لغير العالم بحقائق اللغة ومفهوماتها تفسير شيء من كلام الله، ولا يكفي في حقه تعلم اليسير منها. اهـ.

أهمية النحو في علم الحديث:

قال الرَّحبي: سمعتُ بعض أصحابنا يقول: إذا كَتَبَ لحَّان، فكتب عنِ اللَّحَّان لحَّانٌ آخر، فكَتَب عنِ اللَّحَّان لحانٌ آخر، صارَ الحديث بالفارسيَّة.

قال المغيرة بن عبدالرحمن: جاء الدَّرَاوَرْدِي – يعني: عبدالعزيز بن محمد – إلى أبي يعرض عليه الحديث، فجعل يقرأ ويلحن لحنًا بَيِّنًا، فقال له أَبِي: وَيحكَ يا دَرَاوَرْدِيّ، أنتَ كنتَ بإقامة لسانكَ قبل هذا الشأن أحرى.

قال حاجب بن سليمان: سمعتُ وكيعًا يقول: أتيتُ الأعمش أسمع منه الحديثَ، وكنتُ ربَّما لحنتُ، فقال لي: يا أبا سفيان، تركتَ ما هو أَوْلَى بكَ منَ الحديث، فقلتُ يا أبا محمد، وأي شيء أَوْلَى منَ الحديث؟ قال: النَّحو، فأَمْلَى عليَّ الأعمش النَّحو، ثُمَّ أملى عليَّ الحديثَ.

وقال الأصمعي رحمه الله: إن أخوف ما أخاف على طالب العلم – إذا لم يعرف النَّحو – أن يَدخلَ في جملة قوله صَلَّى الله عليه وَسَلَّم ((مَن كذب عليَّ متعمدًا فَلْيَتَبَوَّأ مقعده منَ النار))

أهمية النحو في علم العقيدة

قال علي – رضي الله عنه –: تعلَّموا النَّحو؛ فإنَّ بني إسرائيل كفروا بحرفٍ واحد كان في الإنجيل الكريم مسطورًا، وهو: أنا وَلَّدت عيسى، بتشديد اللام، فخَفَّفوه، فكَفَرُوا.

وقال ابن جنِّي: إنَّ أكثر مَن ضَلَّ من أهل الشَّريعة عن القصد فيها، وحادَ عن الطَّريقة المثلى إليها فإنَّما استهواه، واستخَفَّ حلمَهُ، ضعفُه في هذه اللُّغة الكريمة الشَّريفة التي خوطب الكافة بها.

وقال أبو عبيد: سمعت الأصمعي يقول: سمعت الخليل بن أحمد يقول: سمعت أبا أيوب السختياني يقول: عامة من تزندق بالعراق لقلة علمهم بالعربية.

أهمية النحو في علم الفقه:

قال الشافعي رحمه الله: لا أُسأَل عَن مسألة مِن مسائل الفِقه إلاَّ أجبتُ عنها من قواعد النحو.

وقال أيضًا رحمه الله: ما أردتُ بها – يعني: العربيَّة والأخبار – إلاَّ الاستعانة على الفقه.

أهمية النحو في حفظ اللسان من الزلل والخطأ

في "معجم الأدباء" للحموي: حَدَّثَ النَّضـــر بن شُمَيل، قال أخبرنا الخليل بن أحمد، قال: سمعتُ أيوب السَّخْتِيَانِي يُحَدِّث بحديثٍ، فَلَحَن فيه، فقال: أستغفر الله، يعني: أنه عَدَّ اللَّحن ذنبًا.

وفيه أيضًـا: وحَدَّث أبو العيناء، عن وَهْب بن جرير، أنه قال لفتى من باهلة: يا بُنَي، اطلب النَّحو؛ فإنَّكَ لن تعلمَ منه بابًا إلاَّ تَدَرَّعتَ منَ الجمال سِربالاً.

وفيه أيضًا، عن سعيد بن سَلْم، قال: دخلتُ على الرَّشيد، فبَهَرَني هيبةً وجمالاً، فلَمَّا لَحَن خَفَّ في عَيْنِي.

وعلى هذا قول الشاعر: يُعْجِبُنِي زِيُّ الفَتَى وَجَمَالُهُ فَيَسْقُطُ مِنْ عَيْنَيَّ سَاعَةَ يَلْحَنُ

أهمية النحو في التعايش مع جمال القرآن الكريم:

حُكي أن الأصمعيَّ رحمه الله مر على جارية، وهي تنشد:

أستغفرُ الله لذنبي كلِّه ♦♦♦ قتلت إنسانًا بغيرِ حلِّهِ

مثل الغزال ناعمًا في دلِّه ♦♦♦ فانتصَفَ الليلُ ولم أُصلِّهِ

فقال لها: قاتَلَك الله، ما أفصحَكِ؟

فقالت: ويحك، أَوَ يُعَد هذا فصـــاحة مع قول الله عز وجل: ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَـــى أَنْ أَرْضِـــعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾؟ فقد جمع سبحانه في آيةٍ واحدة بين أمرين، ونهيين، وخبرين، وبِشارتين.

ثانيا: مبادئ علم النحو

لابُدَّ لكل شارع في فن من الفنون أن يتصوره قبل الشروع فيه، تصورا إجماليا؛ ليكون على بصيرة فيه؛ وإلا صار كمَن ركب متنَ عمياء، وخبَطَ خبْطَ ناقةٍ عشواء، ويحصل التصور المطلوب بالوقوف على المبادئ العشرة التي جمعها الناظم محمد بن علي الصبان عليه رحمة الله في قوله:

إِنَّ مَبادِئ كُلِّ فَنٍّ عَشَرَه ... الحَدُّ وَالموضُوعُ ثُمَّ الثَّمَرَه

وَنِسْبَةٌ وَفَضْلُهُ وَالوَاضِعْ ... وَالاِسْمُ الِاسْتِمْدَادُ حُكْمُ الشَّارِعْ

مَسَائِلٌ والبَعْضُ بِالبَعْضِ اكْتَفَى ... وَمَنْ دَرَى الجَمِيعَ حَازَ الشَّرَفَا

- الحد:
  - لغة: يطلق على عدة معان أشهرها:
    - القصد: كقولك: نحوت مكة.
    - المثل: كقولك: زيد نحو عمرو.
    - المقدار: كقولك: عندي نحو ألف درهم.
    - الناحية أو الجهة: كقولك: سرت نحو المشرق.
    - النوع: كقولك: الكلمة على ثلاثة أنحاء: اسم، وفعل، وحرف.
    - بعض: كقولك: أكلت نحو الطعام.
    - القسم: كقولك: نحوت مالي بين أولادي.
  - اصطلاحا: علم بأصول وقواعد يعرف بها أحوال أواخر الكلم إعرابا وبناء.
- الموضوع : الكلمات العربية حال تركيبها بالجمل.
- الثمرة: لعلم النحو ثمرات عديدة منها:
  - فهم كتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم.

- صون اللسانِ عن الخطأ في الكلام، والبنانِ عن الخطأ في الخط، والجنانِ عن الخطأ في الفهم، والأركانِ عن الخطأ في العمل.

- النسبة : هو من علوم الآلة، التي من خلالها تفهم النصوص العربية.
- الفضل : هو دعامة اللغة العربية، وقانونها الأعلى.
- الواضع : أبو الأسود الدؤلي (٦٧هـ) رحمه الله.
- الاسم: له عدة أسماء منها: العربية – الإعراب – النحو .
- الاستمداد: القرآن الكريم، وفصيح اللغة العربية، والسنة النبوية على الصحيح.
- حكم الشارع: هو من فروض الكفايات، وقال بعضهم: بل هو من فروض العين.
- المسائل: المرفوعات –كالفاعل، والمبتدأ والخبر، ونحوها – والمنصوبات – كالمفاعيل ونحوها– والمجرورات – كالأسماء المجرورة والمضاف ونحوه.

وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم